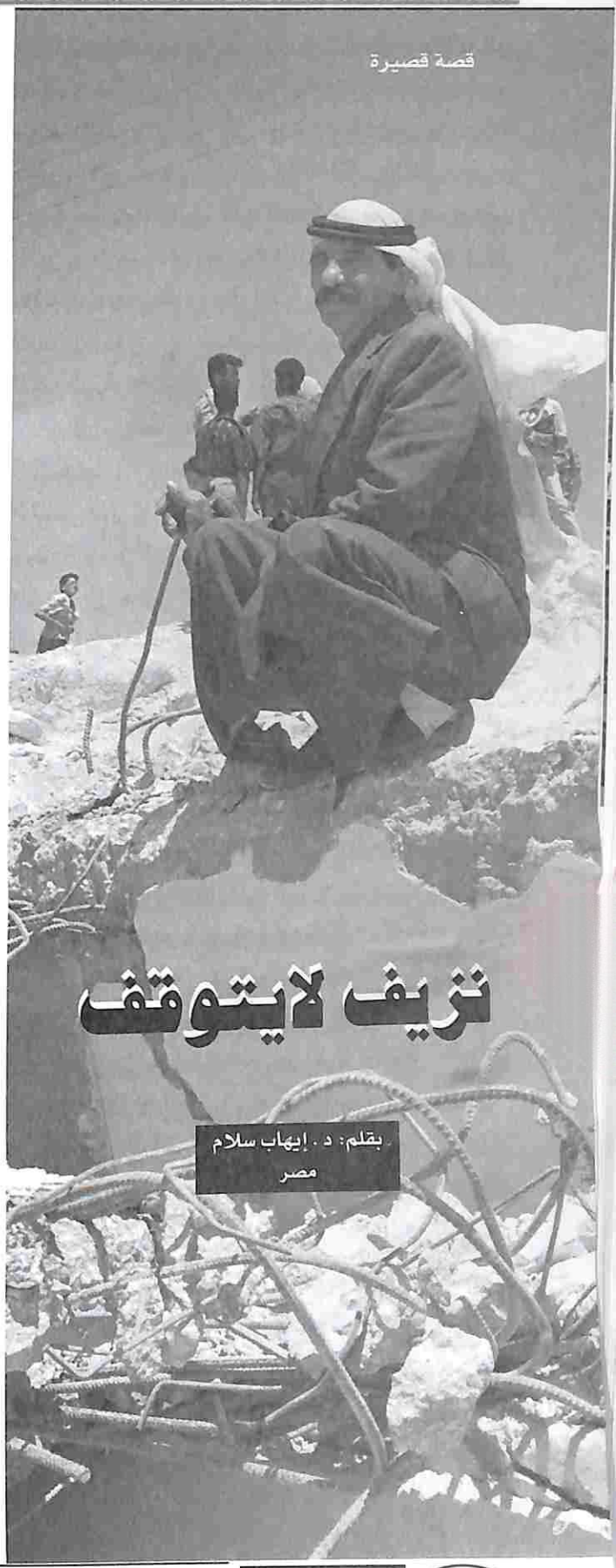

كان يعرف أن إجرامهم لن يتوقف، ووضع نصب عينه أن يحاربهم بالكثرة الرائعة المثقفة المتعلمة. ورغم ضيق ذات اليد إلا أنه استطاع أن يحقق هدفه. فقد تزوج وأنجب سنة بعد أخرى ولدا وبنتا ثم ولدا فبنتا. وهم يتوغلون في البلاد وتزداد شوكتهم. ولم يقتنع بتلك النظرة الضيقة التي سادت وهي المقاومة بالحجارة. كان يرى مقاومتهم لن تكون إلا بأسلحة خفية. قوامها العلم والإيمان. تفاجئهم فتشل من توغلهم. لذلك قام على تربية أولاده بالإيمان والعلم، وكان ذلك يقتضي منه أن يعمل كثيرا وكانت ثمرته عمله قليلة. غير أن مركبه أبحر في بحر ليس له نهاية. قوى العواصف مرتفع الأمواج وشعر في لحظة أنه ربى أجيالا مسلحة بالدين ومدرعة بالعلم. كان الناس يستغربون كيف تمكن رضوان الحمال أن ينتج كل هذه الكفاءات والمواهب والنوادر. وهو الفقير. وشعر بالفخر وهو يجد حوله زهرات في الطب والهندسة والعلوم والآداب والتجارة وغيرها. تسعة من الرجال والنساء لهم مراكز مرموقة وهو لا يزال يحمل على عاتقه من الشاحنات إلى المخازن. حمال فقير في سوق الخليل. وكان يفتخر وهو يجلس قليلا في المقهى ليستريح أن زهرات حياته هي التي ستقاوم في مستقرها هؤلاء المتوغلين. في المستشفى يعمل عدنان ولده البكر ينقذ الناس من آلامهم ولو أن الحالات تصل إليه بعد لأي لكن يده فيها الشفاء من الأسقام. وفي المصنع الصغير حيث يعمل مروان ابنه التالي مهندسا يصنع من الحديد سريرا بعد سرير لهؤلاء الفقراء الذين لا يتمكنون من شراء حجرات النوم الفاخرة. وفي الصحيفة اليومية تكتب كوثر مقالاتها النارية تندد بالاستعمار الغاشم الزاحف المتوغل، وفي المدرسة الثانوية حيث تعمل نضال أستاذة للعلوم. وسألها يوما: ألا تخترعين سلاحا يفتك بهؤلاء المتوغلين؟.. أجابت بضعف: إن فكرة السلاح موجودة ولكن أين الإمكانيات يا أبي؟.. سأل: وما هي الإمكانيات؟.. ردت قائلة:

مصنع للسلاح يا أبي. قد يكون سريا لأننا لن نتمكن من الحصول على ترخيص ولكن بتشييده يمكن أن ننوع في صنع الأسلحة التي تردع العدو وتخرج الاستعمار البغيض. وعاد يسألها: وما هو في رأيك السلاح الفعال يا نضال؟.. قالت: كل أنواع السلاح. وهناك سلاح أفكر فيه يكثف الضوء. ويحوله

كأشعة الليزر تطلقه على الدبابة فيحرقها ويحرق الأسلحة المشهرة في وجوهنا. ويشل يد المتوغلين وهي تمسك بالسلاح. وبدلا من التعامل معهم بالحجارة نتعامل معهم بهذا السلاح. سأل الرجل بفضول: وكم يتكلف بناء مصنع مثل هذا؟.. قالت: ملايين من الشياكل يا أبي لكن أين هي الملايين؟..

وابتلع غصة، فبلده لا زالت تتعامل بعملة العدو، فمتى إذن تكون لها عملتها الوطنية؟.. إنه لذلك سمى البنت الثالثة دينار كأنما يوحي للجميع أن هبوا وكونوا من أنفسكم عملة اسمها الدينار.

وكأنهم اكتشفوا أنه يقاوم بالكثرة الرفيعة المتميزة لذلك عملوا على أن يشتتوا أسرته، فهدموا بيته وادعوا أن بيته بني بلا ترخيص. ويعرفون جيدا أنه ورثه عن أبيه، ذلك الذي بناه قبل قيام هذه الدولة الغادرة المتوغلة، وهو الشيء الوحيد الذي ورثه عن أبيه، إذ إن مهنته حمالا لم تكن تسمح له أن يقتني دارا ويتمكن فيه أن يكون أسرة متشعبة. وكانت حجتهم في هدم البيت أنه شيد دون ترخيص والحقيقة أنهم يقتصون من عمران ذلك الذي خرج عن نظرية أبيه وفجر نفسه في القدس في السوق المزدحم فقتل وجرح العشرات ورقد مع الشهداء. إن عمران انشق عن نظريته ولو كان قد اعتنقها لما فقد حياته ولبقي حيا يقاوم بما وصل إليه من علم وإيمان. وقتلوا امرأته الولود الحنون تحت الأنقاض. إذ كان هو يعمل في السوق، وأولاده في أعمالهم، ولا توجد غير أم عدنان فسقطت الحوائط على رأسها فشجت ونزفت حتى الموت. وتركوا جرحا في قلبه ينزف بلا توقف لكن ماذا يفعل إزاء قوة غاشمة؟

تفرق الأبناء. واحد تزوج وأقام في شقة بعيدة، وآخر لجأ إلى عمه. وثالث لجأ إلى خاله. ورابعة لجأت إلى خالتها العانس. وخامسة كونت مع زوجها بيتا يحميها. وتشتت باقي الأولاد في البلاد. لأن أحدا منهم لم يفكر أن يبقى على الأرض وسط الهدم إلا هو. أصر ألا يبرح الأرض الخراب ذات الأعمدة المتهدمة والحجارة المتناثرة وبنى فيها عشة وأقام فيها وسط اعتراض من أبنائه النبهاء. إن المهاجرين في الخارج حقا يرسلون له تعويضات عما أصابه وتحويلات مالية من الخارج تساعده على المعيشة الضنك، لكنه يأسف لمغادرتهم للبلاد وهجرهم للمكان. تحويلاتهم دليل على التراحم لكنه يريد أن تنتفع بلدهم بعلمهم وإيمانهم لكنهم مضطرون للهجرة حتى يتفادوا نيران المتوغلين.

دعاه بعضهم أن يلحق بهم في البلاد العربية التي هاجروا إليها ليعيش في كنفه غير أنه أبى أن يبرح المكان حتى لا يستولي المتوغلون عليه. وبقي في مكانه يعمل أعماله الصغيرة ويكتفي بما يدخل إليه من مال منها لأن المتوغلين كانوا يرجئون صرف الدولارات التي كان يرسلها له أبناؤه من الخارج. وشعر بالفرحة عندما رأى صبية المدينة يأخذون فتات المبنى القديم لتكون حجارة يقذفون بها الأعداء لكن لم يكن يشجعهم. كان يروم منهم أن يلتفتوا إلى دروسهم. وأن ينهضوا بأنفسهم فينهض وطنهم السليب بهم. كان لا يزال يصر على أن مقاومة هؤلاء الدخلاء لا تكون إلا بالدين والعلم وتطبيقات العلم. وكم كان يفكر في ذلك المصنع الكبير الذي ينتج مسدسات الليزر يشل بها أيدي الأعداء. وكانت هي فكرة نضال تلك التي سكنت عند خالتها العانس واستمرت تعلم أولاد المدينة العلوم. وتأتيه كثيرا في العشة الصغيرة تطبخ له طبخة لذيذة تغنيه عن طعام السوق. وتدعوه مرارا أن يأتي ليعيش معها عند خالتها ويتقدم للزواج من خالتها العانس. لكنه يرفض لأنه مقتنع أن بعد أم عدنان لا مكان لامرأة في قلبه أو في بيته. وأنه لن يبرح أرضه الخراب حتى لا يستولي عليها الأعداء. غير أن الفتاة أصرت على أن يتزوج من خالتها ليكون له منها أولاد جدد. كثرة جديدة يشكلها برفعة وسمو ليحارب بها هؤلاء المتوغلين وليعوض بها الابن الذي استشهد. بل اقترحت عليه أن تنتقل هي وخالتها ليعيشوا معا في هذه العشة. وسألها: وما المانع أن تتزوجي أنت يا نضال وتنجبي هؤلاء الأطفال الجدد؟.. أتريدين أن تسيري في طريق خالتك؟..

سألت نضال: كيف أتزوج يا أبي؟.. هل أعلن في الناس أنني راغبة في الزواج وأن على ابن الحلال أن يتقدم؟..

ابتسم الرجل وقال: المثل يقول اخطب لابنتك ولا تخطب لابنك. قالت: إذا وجدت العريس يا أبي فاعلم أنني سوف أتزوجه في هذه العشة. وأعيش معك. قال: سوف نسعى إلى الحصول على ترخيص للبناء مرة أخرى على هذه الأرض. سألت البنت سؤالا لم يخطر على بال الرجل: وفي هذه الحالة يا أبي سوف يطلبون منك المستندات التي تخول لك امتلاك الأرض هل هي عندك؟!..■